النّظريّة الإعجازيّة للتَّنزيل

الدكتور مشكور العوادي
أستاذ الدراسات القرآنية والبلاغية المساعد
جامعة الكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم

" المقّدمة "

إن القرآن الكريم هو تنزيل رب العالمين المعجز على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المكتوب في المصحف المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته ، أنزله الله سبحانه وتعالى على قلب النبي عن طريق الوحي متعّهداً بحفظه ورعايته ، لتبليغه الى عبادة .. وبعد :

فقد بدأت جهود المسلمين الأوائل بإشراف الرسول الأكرم على جمعه وترتيبه وكتابته إذ المقصود بجمعه حفظه وأستظهاره في النفوس وكان هذا أوّلاً ومن ثم كتابته بعد جمعه من الصحابة والصحف المكتوبة فيه من عهد الرسول إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد توافرت القرائن القريبة والروايات المعضّدة التي تؤكد أن القرآن كان يدون حالة نزوله وأنّ هذه المدونات كانت تحفظ وتتلى بدقة وإحكام ، تسجيلاً وتوثيقاً .. كما كانت القراءة بالأحرف السبعة تيسيراً للهجات المختلفة للقبائل وحفظاً على وحدتها وتعضيدها للائتلاف المصحفي .

وإنّ استقراء المصحف القرآني على اختلاف مرحلتي نزوله : مما نزل قبل هجرة الرسول إلى المدينة وان كان نزوله بغير مكة وهو المكّي أو ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة وهو المدني .. يدل على إعجازه في كل مناحيه ومجالاته إذ لا يقتصر على جانب محدد ، وإن اختلف هذا التّرتيب النزولي فما أخلّ ذلك بإعجازه ليدلل على أنّ القرآن معجز بكل دلائله بغض النظر عن ترتيبها ، فهو عامّ في خصوصيته وخاصّ في عموميته لا تشوبه شائبة محققاً القصد نزولاً وتدويناً وبياناً ، وهو محفوظ عبر الأزمنة والأمكنة من تلاعب الإنس والجنّ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ...

والقول بالنظريّة لعدم توافر الأدلة الثبوتية الكافية ، ومن هنا نتوخى أن نتوصل من هذه القبسات اللاّمحة إلى مداخل أسنى من لطائف الإعجاز العظيم ...

وما سنعتمده -بلا شك- هو مجهود تقريبي من معطيات النظرية نتيجة على مقدّمات ، فهو بترتيب التنزيل الموجود في المصحف العثماني أو بحسب أسباب النزول كما أثر في مصحف الامام علي عليه السلام لاغبار عليه .. إذ تثبت هذه النظرية وتشير على نحو واضح إلى قاهرية الوحدة الإعجازية وهيمنتها على إحكام دعائم الدين وضبطه داخل نظمه المعجز المهيأ له من بارئه ، لاسيما وأنّ معجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلّم قد اختلفت عن غيره من الأنبياء عليهم السّلام ، فمعجزة كلّ نبي شيء ورسالته شيء آخر ، أمّا نبينا محمد فإنَّ معجزته عين رسالته ورسالته عين معجزته وهما معاً القرآن، العظيم . وقد تطابقتا وهما المعجزة الأبديّة والرسالة الخاتمة ، ولمّا كان وقوعهن في نطاق الختام وجب أنْ يتحدن ، وبذا فالرسالة المحمدية قد حققّت عالميّة النّشر في خطابها القرآني المعجز وهي تفتح على الجميع " وثنيّهم ويهوديهّم ومسيحيّهم" . أضف إليهم من كان مسلماً الآن ، ولذلك فإنّ القائمين على فتح هذه الرسالة هم قادة من جميع الأجناس البشرية وقد سخروا لتحقيق عالمّية الدعوة الاسلامية مهما كانت عوائقها ولو كره المشركون .

وهذا يعني أنّ عولمة الدين الاسلامي عند التحقيق – هي بعينها – الاعجاز التّكويني الموافق لومضات الإعجاز التدويني المصرّح به في القرآن الكريم ..

وأخيراً : آمل أن تثبت محاولتي المتواضعة هذه قدم صدق لخطوات موفقة قابلة لفهم الاعجاز القرآني ...

"ربنا آمنّا بما أنزلت وأتّبعنا الرّسول فأكتبنا مع الشّاهدين". نسألك اللّهم السّداد والتيسير بقدسِ تنزيلك المُعجز المبين ...

والحمد لله رب العالمين .

الباحث

المطلب الأول :
" مبادئ النظرية "

إنّ القول بالنظريّة يعني أنهّا محتفّة بالعديد من الأدلّـة المحتملـة تاريخيّـاً وعقائـديّاً ، وبـذلك فهـي لـم تكتسـب اليقين الثبوتي والبرهان الاعتمادي وعندها لم تتحوّل الى قانون الهي مطلق ؛ ومـع هـذا فـإنّ مهمتهـا تنزيـه القـرآن بتفنيد التّحريف واُحتمالاته من كلّ وجه وباب لأنّ القرآن محفوظ بـالحفظ الالهـي ، وعنـدها فالتنّزيـل عنصـر غيـر مخـلّ بالإعجاز العام للنسيج القرآني ، أي مهما تعددّت أطوار النّزول يبقى الحفظ القرآني فعّالاً في تجميـع فرقانـه ليكـون بحق قرآنه الحكيم.

وإن هذه النظريّة تدلّ على أنّ الإعجاز ثابـت بـدون اعتبـار لنمطيّـة الـنّص : تَنـزيلاً أو ترتيبـاً ؛ بمعنـى أنّ الوحـدة الإعجازية من القوّة بمكان بحيث تكون قادرة على لمّ محتوياتها ((سـورها وآياتهـا)) بـأي صـورة رتبّـت بالطّاقـة الذاتيّة للإعجاز ، إذ يتمثّل عندها النّور السّاري في النّصوص القرآنية ..

والسّير في خطى هذه النظريّة التّقريبية للبحث وترتيب معلوماته علـى اعتبـار متأمّـل ومسـتند علـى جهـود العلمـاء والباحثين في إعجاز القُرآن للمواءمة الاستدلاليّة بين مرحلتي التنّزيل والتّدوين إنْ حصل فاصل زماني بينهمـا كمـا هو واضح في تداخل النصوص المكيّة والمدنيّة للتنّزيل العظيم ، فثلاث أرباع القرآن يشير إلى الحقيقة الواحدة ليس غير بل هو كتاب توحيد من الطّراز الأوّل وكل ما عداه مرتبط بنحو أو آخر بهذا الأصـل الـرئيس للعقيـدة ، وكأنّـه المحور المهم وماعداه تفريعات ثانوية.

ويمكن أن تتوضح هذه المباديء في النقاط الآتية :-

-١- أحقية التنزيل:

يعّد التنّزيل من عناصر الوحي الرئيسة ، فهو الأثر التتّابعي لعملية الوحي الغيبية ، والتّسجيل التّـاريخي لمجريـات الاتّصال بين المرسل والرسول ، وبذا فصدوره توقيت متتابع للوحي الذي هو عملية غيبية مـن الله سـبحانه وتعـالى على قلب الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم . وقد تكرّر اتصال التنّزيل بوحي الله وصدوره عنه وعجـز الناس عن الإتيان بمثلهِ معلناً ذلك على ملأ من خصومهِ وجاحديهِ .

والقول بأنّه معجز يعني أنّ التنّزيل هو الوعاء الزماني للإعجاز ، فحين نريد كما يقول الـدكتور مـلا حـويش ((أن نؤرّخ لنشوء فكرة الإعجاز في القرآن الكريم نجد أن أصـول هـذه الفكـرة ترجـع إلـى أوائـل نـزول القـرآن وآبتـداء الدعوة الإسلامية ...)) [١] ومن ذلك يكون التنزيل هو العملية الظاهرة للإعجاز والوحي المكنونتين ..

قال الله تعالى :

((وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِـينُ (١٩٣)عَلَـى قَلْبِـكَ لِتَكُـونَ مِـنْ الْمُنـذِرِينَ (١٩٤)بِلِسَـانٍ عَرَبِـيٍّ مُبِينٍ (١٩٥))) [٢] وقال تعالى :

((حم (١)تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَـابِ ذِي الطَّـوْلِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣))) .[٣]

قال الفخر الرازي: ((فكأنّه سبحانه إنمّا ذكر عقيب قوله (تنزيل) هذه الأسماء الثلاثـة لكونهـا دالّـة علـى أنّ أفعالـه سبحانه حكمة وصواب ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقّاً وصواباً)) .[٤]

ويقول السّيد الصّدر : وتدل الروايات على أنّ الوحي الذي تلقى عن طريقه الرّسـالة الخاتمـة وآيـات القـرآن المجيد كان بتوسيط الملك في كثير من الأحيان وبمخاطبة الله لعبده ورسوله من دون واسطة في بعض الأحيان وكان لهـذه الصورة من الوحي التي يستمع فيها النّبي الى خطاب الله من دون واسطة أثرها الكبير عليه ...))[٥] لأن هذا الوحي المباشر متخصّص لإعمال إرهاصات معيّنة داخل نفس الرسول .

وقال تعالى في التّحدي والمعاجزة ((قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)))[٦]

وقد بين الباقلاني وجه دلالة معجزة القرآن على نبّوة النّبي وبنى ذلك على أصلين : أولهما وقـوع العلـم الضـروري بأنّ القرآن المتلوّ المحفوظ المرسوم في المصاحف هو الذي جاء به النبي من عند الله تعالى وأنّه تلاه علـى مـن فـي عصره ثلاثاً وعشرين سنة وقام به في المواقف وكتب به إلى البلاد وتحمّله عنـه إليهـا مـن تابعـة حتّـى ظهـر فـيهم الظهور الذي لا يشتبه..، والأصل الثاني : أنّه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله وقرّعهم على ترك الإتيان طول تلك السّنين فلم يأتوا بذلك وأستدل على هذا الأصل بآيات كثيرة...))[٧] وهذان الأصـلان يـدلاّن علـى حفـظ القـرآن مـن العبـث والمعارضة ؛ أي أنَّ أحقيّة التّنزيل تكمن في حفظهِ من التّلاعب بحيث تكون لائقة لأنْ تمثّل الحـق بـأجلى صـورة : صافياً نقيّاً من العبث والمغالطات ، وهذا حال القرآن المعجز .

وعلى ما تقدّم فإنّ التنّزيل ضابطة لجمع القرآن لأنّ ((كثيراً ما يطلقون القرآن على العلم اللّدنّي الإجمالي الجامع للحقائق كلها والفرقان على العلم التّفصيلي الفارق بين الحق والباطل وكتاب الله تعالى جامع لذلك كله كما لا يخفى على أهله ،))[٨] فيما لو فرق بإلغاء الناموس التنّزيلي وأصبح فرقاناً ، لاقرآناً ، كما نصّ عليه يصبح فرقانه معجزاً كما أنّ قرآنه معجز، يصبح فرقانه عندما نصرف النّظر عن أسباب التنّزيل ، فيعود الإعجاز بقدرته الغيبية ليلمّ ما تفرّق ويصبح مجموعاً قرآنياً مرّة أخرى : من هنا وحّد الإعجاز بين المصاحف لأنهّ واحدي الصدور من لدن حكيم خبير موحّد لا مشتّت ...

ويركّز الحفظ بالالهي للتنّزيل على التدوين أكثر من القراءة إذ نلحظ أنّ الرسول الأعظم قد طلب ممن يسّجل الوحي الكتابة على حرف واحد والقراءة على سبعة أحرف لأنّ هذه الأحرف قرائية لاتدوينية ، فالتّدوين واحد وإنْ اختلفت قراءاته وذلك للحفاظ على سلامة النصّ تسجيلاً ومشافهةً ، توثيقاً وقراءة.

وتركيز الحفظ على التّدوين لوجود التّسامح والتّيسير عند القراءة ؛ وذلك لأنّ التّدوين ثبوتي باق ، أمّا القراءة فيصيبها الزوال بعد النطق فقط ؛ وبما ان الخلود يساوق الثبوت كان التدوين ألصق بالكتابة منه بالقراءة .

ويقول الدّكتور عبد الصبور شاهين :

((وجملة القول : إنّ القرآن قد ثبت تسجيلاً ومشافهة على عهد الرّسول الله صلى الله عليه وسلم وإنّ المشافهة كانت تضم حروفاً وروايات لم يعرفها التّسجيل وإنّ مراجعة النبي للنص القرآني كلّ عام كانت ضماناً وثيقاً لسلامة النص من النّقص والزيادة والتحريف حتى كانت العرضة الاخيرة)).[٩] وهذه من إمضاء وعد الله بحفظ القرآن وحثّ نبّيهِ على الاعتناء بانحفاظه صدوراً أو قرطاساً أو تدويناً

والمهّم من هذا كله إنّ أحقيّة التنّزيل بلحاظ إعجازه اللاّمتناهي هو الذي يمنحه ثبوتية حقيقّية وأُستمرارية معنوية .

فمّما ورد عن الامام الصادق ((عن جابر قال : قال ابو عبد الله X: يا جابر إنّ للقرآن بطناً وللبطن ظهراً ، ثم قال : يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه ، إنّ الآية لتنزل أولّها في شيء وأوسطها في شيء ، وآخرها في شيء وهو كلام متّصل يتصرّف على وجوه)).[١٠]

وعلى ما تقدّم فالملمح الإعجازي للكلام الإلهي لا يقدح فيه تغاير زمان النّزول فهو مترابط بالرغم من أنف ذلك الزّمان ،- ولأنّه حاصل في زمان أعلى – إذ أنّ وحدة القرآن الارتباطية كاسحة لحاجز الزمان ، وعندها لا يقدح في تنزيله إنْ كان دفعةً واحدةً أو تدريجاً ، فهو باقٍ بوحدته المعجزة ومن ذلك يتسنّى لنا القول بالتنّزيل المعجز من حيث كونه عملية إرسال((الوحي)) ومن حيث محتوى النصّ نفسه ((الرسالة)) هو معجز أيضاً أي أنّ التنزيل وما يحتويه كلاهما ضمن الوحدة الإعجازية ...

-٢- تَعدّدُ النّزول:

رأى عدد من العلماء والدّراسيين أنّ القرآن الكريم قد نزل على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مرّتين ؛ الأولى : دفعه واحدةً على سبيل الإجمال والثانية : نزولاً تدريجاً على سبيل التّفصيل خلال المّدة التي قضاها النبي من بعثته الى وفاته .. وتتعاضد هاتان العمليتان المترابطتان على تبيّين المراد من التنّزيل

قال الشّهيد الصّدر رحمه الله :

((ومعنى نزوله على سبيل الاجمال : هو نزول المعارف الالهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النّبي لكي تمتليء روحه بنور المعرفة القرآنية ومعنى نزوله على سبيل التّفصيل هو نزوله بألفاظه المحدّدة وآياته المتعاقبة)).[١١]

وفكرة تعدّد الانزال . كما يقول السّيد الشّهيد ((يفسّر لنا أيضاً المرحلتين اللتين أشار اليهما القرآن الكريم . في قوله تعالى : ؟ ((الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١))).[١٢] فإنّ هذا القول يشير إلى مرحلتين في وجود القرآن أولاهما ؛ إحكام الآيات ، والثانية : تفصيلها ، وهو ينسجم مع فكرة تعدّد الإنزال فيكون الإنزال مرة واحدة على سبيل الاجمال هي مرحلة الاحكام ، والإنزال على سبيل التّفصيل تدريجاً هي المرحلة الثانية أي مرحلة التّفصيل)).[١٣] وهو يشابه بذلك النظام الكوني الأتم (نظام الأسباب والمسبّبات) الذي يحتاج للتخّصيص والاعمام ...

أمّا الإنزال في ليلة القدر فقد كان مرة واحدة في شهر رمضان لقوله تعالى :

((شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...))[١٤] وقوله تعالى ((حم (١)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣)))[١٥] وقوله تعالى ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١)وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢)لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣))).[١٦] أي دفعة واحدة ومن النزول الإحكامي ، ونزوله هذا يكافيء نزولاً تفرقيّاً على مدى ألف شهر بدلالة سياق الآية.

لأن هذه الليلة هي منشأ النزول الاعجازي للقرآن أي منطقة هبوط النور من السماء الى الأرض وعندها يجب ان تتلاءم مع منطقة صعود النور من الارض الى السماء مما يشكل مواءمة اشعاعية نورية بين النورين النازل والصاعد لذا تم التأكيد عندها بشدة على استحبابية قراءة القرآن معظمه أو ختمه في تلك الليلة لكي يتم التطابق الاعجازي بين النورين وهذا يؤدي الى اداء حق الإعجاز على نحو كامل بما يطابق الحصول على اعظم قدر من الأجر والثواب عن غيره من بقية الليالي كما هو ثابت من الثوابت الاسلامية.

فالحفظ الالهي في المنطقة الغيبيّة الاجماليّة ذو طبيعة كليّة مهيمنة ، أمّا التّفصيل الجزئي فمن وجهة نظر الإمكان البحت أمكن التغاير أو الاختلاف فيه من قبيل ((ما أُفتقده زيد من القرآن في الجمع الأوّل وأثبته بعد السؤال عنه)).[١٧]ولمّا كانت الحافظيّة واقعة مما هو فوق منطقة التّفصيل فإنّها ستعيد التّرتيب الى نظامه والموازين الى استقرارها ، وهذا هو الذي حصل.

أمّا من وجهة فلسفيّة فالإحكام سابق على التّفصيل ، أي الوحدة سابقة على الكثرة وهذا ناموس كوني عام ، والسّابق حافظ لّلاحق بدليل القاعدة الفلسفيّة :((شرفية الأقدم)). ومن هنا فالوحدة إلاحكامية مشرّفة للكثرة التّفصيلية وحافظة لها . وفي القرآن تفيدنا هذه الى أنّ الهيمنة منوطة بالنكتة الوحدوية السّارية في عمومه .

أمّا حكمة تنجيم القرآن في ثلاث وعشرين سنة ، فقد قال الزّمخشري :

((قالوا : هلاّ أُنزل عليه دفعه واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق، والقائلون : قريش : وقيل : اليهود . وهذا فضول من القول وممارة بمالا طائل تحته لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة أو مفرقاً وقوله (كذلك) جواب لهم أي : كذلك أُنزل مفّرقاً والحكمة فيه : أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتّى تعيه وتحفظه .... ولو ألقي عليه جملة واحدة لبَعلَ به وتعيّا بحفظه والرّسول صلى الله عليه وسلم فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام حيث كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب وهم كانوا قارئين كاتبين ، فلم يكن له بدّ من التلقّن والتحفّظ فأنزل عليه منجّماً في عشرين سنة ، وقيل : في ثلاث وعشرين . وأيضاً فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السائلين ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتّى ذلك إلاّ فيما أنزل مفرّقاً...)).[١٨]

ومما لا شك فيه أنَّ التنّزلات تابعة لحيثيات النزول : فما أنزل دفعةً واحدة يخصّ النّفس المحمدية دون الأمّة لتهيئته لمرحلة النّزول التّدريجي الذي هدفه توعية الأمة .. وعلى هذا كانت حكمة التنزيل في نزوله بجميع أوجه النزول ((دفعي ، تدريجي ، إحكامي ، تفصيلي)) بما يتوقعه الكافرون وبما لا يتوقعون لذا كان سؤالهم مثار جهل وجدل.

قال الرافعي : ((ولولا نزوله متفرّقاً : آية واحدةً ً الى آيات قليلة ما أفحمهم الدّليل في تحديهم بأقصر سورة منه إذ لو أنزل جملة واحدة كما سألوا لكان لهم في ذلك وجه من العذر يُلبس الحقّ بالباطل وينفّس عليهم أمر الإعجاز...))[١٩]. وفي هذا نقول ان الله سبحانه أعلم كيف ينزّله بحيث لا يجعل للكافرين عُذراً عليه يدخلون منه في مداحضته وتَفْنيده ، اذ تقع هذه النمطيّة بالتنزيل من مداخلات الاعجاز ؛ أي أنّ التّنزيل ليس عشوائياً بل بطريقة اعجازية تسكت المعاندين والجاهلين والملحدين.

وفي كل ما تقدم فالصوت القرآني المقروء والمبثوث في هذا النطاق له الهيمنة التامة على مجاوراته الى حين يتم تأويله اذ يترتب كذلك على هذا الاعتقاد أنه كلما زادت قراءة القرآن - وهي متجسدة بفعل يتبع- في اجواء الكون كله ازداد التطهير الصوتي لها من الشياطين وشوائب الدنيا، وهذا ما يثبت بلا أدنى شك قدرة القرآن الصوتية المعجزة حال كونه مقروءاً قبل أن يكون مدوناً.

-٣- الترتيب والتناسب :

اختلفت الروايات بصدد ترتيب السّور والآيات ، وهذا على النّطاق التّاريخي البين أما على النطاق الغيبي فممّا لا شك فيه أنّ النصّ بقي معجزاً بقوّتهِ الاقتداريّة الحافظة سواء أكانت سوره وآياته توقيفاً أو اجتهاداً ، بل بقي محفوظاً بكل تشكيل أو نسق ممكن ان يتشكل فيهِ .

عن ابن عباس ٨، أنّه قال : ((كان القرآن ينزّل مفرّقاً لا ينزل سورةً سورة فما نزل أوّلها بمكة أثبتناها بمكّة وإنْ كان تمامها بالمدينة وكذلك ما نزل بالمدينة وإنّه { أي رسول الله صلى الله عليه وسلم} كان يعرف فصل ما بين السّورة والسورةً اذا نزل بسم الله الرحمن الرحيم فيعلمون أنّ الاولى قد انقضت وابتدىء بسورة أخرى)).[٢٠]

وقد اختلفت آراء العلماء في ترتيب السور في المصحف من حيث كونه توقيفاً عن النبي أو اجتهاداً من الصحابة أو احتمال معرفة الصحابة لهذا الترتيب من النبي صلّى الله عليه وآله وسلم ، وهنا يقول المرحوم الدكتور صبحي صالح :

((وأمّا ترتيب السّور فتوقيفي أيضاً وقد علم في حياته صلى الله عليه وسلم وهو يشمل السّور القرآنية جميعاً ولسنا نملك دليلاً على العكس فلا مسّوغ للرأي القائل : إنّ ترتيب السور اجتهادي من الصحابة ولا للرأي الآخر الذي يفصّل : فمن السور ما كان ترتيبه اجتهادياً ومنه ما كان توقيفيّاً)).[٢١]
وهذا ما يؤكّد أنّ جميع ما صدر عن الرسول توقيفي بلحاظ وجوب احترام السنة كلها بعلم الرّسول وتوجيهاته وإملاءاته ..
((ولقد يرد أنّ هناك آيات مدنيّة في سور مكية وآيات مكية في سور مدنيّة وإنّ هذا قد يقوم قرينة على أنّ السور المكّية لم تكن تامّة التّرتيب في العهد المكّي ونقول من حيث الأساس إنّ الآيات المدينة المروية في السور المكّية ليست كثيرة العدد حتّى مع التّسليم بصحّة رواية مدنيتها جميعاً)). [٢٢]
فمجيء آيات مكية في سور مدنية وآيات في سور مكية يعني : تشابك النسيج القرآني بما يدلّل على أنّ عصر التدوين متخلّف عن عصر التنّزيل ، وهذا من الإحتمال الآخر .. وعندها فالموجود بين أيدينا ((مكي ، مدني ، مدني ، مكي)) تجميع وليس بتنزيل كما صدر عن المنزّل ، وهذا يبيّن أنه مجهود تجميعي تم بعده في عهد لاحق التّدوين التجميعي الذي أصبح على الكّم في معياره التّرتيبي فضلاً عما توافر من اجتهاد للصحابة الذين استجلبهم الخليفة عثمان لهذه المهمة ..
أمّا ترتيب الآيات في سورها فلاشك بين المسلمين في أنّها بتوقيف النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان يلقّن أصحابه ويعلمهم ما نزّل عليه من القرآن على التّرتيب الذي هو عليه الآن في مصاحفنا . وذلك بتوقيف جبريل إياه على ذلك لأنّه كان يبيّن له عند نزول كل آية أنّها تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، وفي الكلام عن ترتيب الآيات في السور يؤكد الاستاذ غانم قدوري الحمد على أنّه :((لا ينبغي أن يغيب عن البال الوحدة الموضوعية والاسلوبية التي تبدو في كثير من السور وهو ما يقطع التفّكير في أيّ احتمال لكون ذلك الترتيب اجتهاداً من الصحابة)).[٢٣] .
وقطع السيوطي الشكّ في اثبات توقيفّية الآيات تاريخّياً وعقائديّاً ، بقوله : ((وما كان الصحابة ليرتّبوا ترتيباً سمعوا النّبي صلّى الله عليه وسلّم يقرأ على خلافه فبلغ ذلك مبلغ التّواتر)).[٢٤]
وهذا يعني أننا مهما قلنا بترتيب المصحف أو نزوله عثمانيا أو غير عثماني فان بصمات الرسول 7 واضحة وجلية في كل هذه الترتيبات اذ تسمية السور وبداياتها وخواتيمها له وكذا جميع الاملاءات القرآنية والآيات مترتبة بتوقيفه وتوجيهه وحضوره؛ كل ما في الأمر كانت في عهده في الصدور وفي اللخاف والصحاف ، اما جهود الخليفة عثمان او اللجنة بعده فتجميع وتوثيق لما اجتمع عندها من نسخ معتبرة ولا اجتهاد في كل ما ذكر سابقا وخصوصا عناوين السور.
أمّا ما وجد من اختلاف سواء في التّرتيب أو على حسب النّزول أو بأُختلاف عدد السّور أو الآيات جراء الدمج أو التناسق ، كقولهم: إنّ عدد السور في مصحف عثمان (رض) مئة وثلاث عشرة سورة بجعل ((الانفال وبراءة سورة واحدة)) او كقولهم: إنّ عدد السور في مصحف عبد الله بن مسعود ((اثنتا عشرة ومئة سورة لأنّه لم يكتب المعوّذتين وفي مصحف أُبي كما يقول الصعيدي ((كان خمس عشرة ومئة سورة لأنّ سورة الفيل وسورة قريش فيه سورة واحدة))[٢٥] ... وغيرها من التّغاير في التّرتيب والتّناسب فهذه من الاختلاف الموضعي الاعتباري لا الحقيقي الذي يمسّ النّسيج القُرآني لأنّها تمثّل تجاوزاً طفيفاً مقابل وحدتهِ الإعجازية الراسخة.
ويعضد الدليل الفقهي حصول مثل هذا التغاير وأنّه غيُر مخلّ بالوحدة الإعجازية لأنّه يعدّ سورتين بمثابة سورة واحدة فبعضهم [٢٦] يرى أنَّهُ لاتجوز قراءة سورة الفيل أو ولايلاف قريش وحدها بل كلاهما تعدّان سورة واحدة ؛ الواحدة منهن لاتجزيء لأنّ القراءة تكون باطلة لا الصلاة لكونها غير ركن وعندها يطالب المصلي بصلاة احتياط (ترميمية) لصلاته ، ولا يعيدها ، وبذا أخذت هذه الاشكاليّة بنظر الاعتبار لكون الفقه من الوجهة الاسلامية يعدّ قانوناً ارتكازياً أعلى من البحوث الكلامية والفلسفية ، وكذلك الحال فيما اختلف فيه حول بداية كلّ سورة بالبسملة ، بما يؤثر في عددها والى فتح المجال في جدليتها هل هي اثنتا عشرة ومئة سورة أو ثلاث عشرة ومئة سورة أو أكثر ..؟ وهذا يدلّل على أن المهمّ هو النسيج الاعجازي والوحدة المعنوية ، دون التقسيمات العددّية والتفريعات الثانوّية .

-٤- استقراء النّصوص :

إنّ بحث الظاهرة الاعجازية في آيات التنّزيل المبين يشير الى أنّ الإعجاز واقع في عموم النصّ القرآني وهذا من باب ((تكوير العلة على المعلول)) لذا فأستقراء المصحف القرآني يدلّل على إعجازه في كلّ قضاياه ومجالاته ولايقتصر على جانبٍ محدد.
أمّا مفرده ((التنزيل)) فمهمه في هذا الجانب لانطواء عناصر متنوعة تحتها من قبيل حفظ ظروف الواقعة المذكورة قرآنياً وبيئتها وسيرة الرّسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم .

اذ أنّ ((بقاء القرآن نصّاً وروحاً يعني أنّ نبوة محمد (ص) لم تفقد أهم وسيلة من وسائل إثباتها لأنّ القرآن وما يعبّر عنه من مباديء الرسالة والشريعة كان هو الدليل الاستقرائي وفقاً لما تقدم على نبوّة محمد (ص) وكونه رسولاً وهذا الدليل يستمر ما دام القرآن باقياً ...))[٢٧]
وإنّ استقصاء هذه المفردة القرآنية والتثبّت من معناها والوقوف على سياقات نزولها وصولاً بنماذجها الاستقرائية مهّم لدعم النظرية الاعجازية ونقلها من الظنّ ثم تقريبها الى مدارات اليقين ، وقد وجدناها في أحد عشر موضعاً ، جاءت في خمس آيات مع الحروف المقطعة في فواتح السور ومع غيرها في ست آيات.. ومن هنا يمكن إجمال أهّم سماتها الموضوعية والاسلوبية فنقول : إنّ هذه الآيات أكّدت نزول القرآن من ربّ العالمين على قلب الرسول بلسان عربي مبين ليكون من المنذرين كما ردّت على المفترين والملحدين والمعارضين من باب إظهار القوة الالهية للكتاب المهيمن على ما سبقه من الكتب، كما أنّها دعت الرسول للثبات والتسبيح والصبر في مهمته.
وعرضت هذه الآيات على نحو تنويعي التّشديد على المفهوم الواحد بعدّة تشكيلات أو ((أنساق)) فناوبت بين ((التنزيل)) و ((تنزيل الكتاب)) و ((المجيء بالمقطع)) و ((عدمه)) او ((المجيء بالقسم)) و ((عدمه)) أو مجيء القسم بديلاً عن المقطعات . أو توكيد القسم بعالمي الغيب والشّهادة ... وفوق كلّ هذه كان محور التّوحيد وأصول العقيدة هو الأهمّ لتوكيد شأن القرآن وعظمته وإثبات تنزيله وأُختصاصه بالله العظيم سبحانه وتعالى ، لأنّه في مقام تركيز الثوابت الاعجازية للقرآن في الذهنية العربية التي قرعت بادئ ذي بدء بالنصّ القرآني وحياً منزّلاً بلسان عربي مبين.
قال تعالى : ((وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)))[٢٨]
وقال تعالى : ((فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨)لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١))).[٢٩]
والّلافت أيضا في هذا الاستقراء توارد ذكر ((التنزيل)) مع المقطّعات ولاسيما مع الحواميم فـ((حم)) بوآبة تنزيلّية جاءت مع "التنزيل ومرادفاته" لتغطّي بذلك هذه الحروف المقطعة النصّ القرآني كلهّ. ولمّا كان المضمون المشترك لهذه السور بيان الوحي وحيثياته فقد بدأت قضية نزول القرآن في بداية هذه الحواميم وهذا يأخذ بنا الى أنّ كثيراً من هذه السور -كما يقول الباقلاني – ((اذا تأملته فهو من أوله الى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن والتنبية على وجه معجزته)).[٣٠]
فضلاً عن كونها بمثابة مفاتح دالة في العهد المكي لشرح ثوابت العقائد والأصول الاسلامية ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد حافظت على تسلسلها الموضوعي وكأنها قطعة واحدة في كل من النزول والترتيب ومن هنا فهي من دلائل الاسلوب الهندسي المعجز التي اجتمعت في كلام الله تعالى.
قال تعالى : ((حم (١)تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣))).[٣١]
قال الفخر الرازي :
((وقيل الفائدة في ذكر (العزيز العليم) أمران : (أحدهما): انه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحّد الذي يتضمن المصالح والإعجاز ولولا كونه عزيزاً عليماً لما صحّ ذلك (والثاني): أنّه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره إلى حين انقطاع التكليف وذلك لا يتّم إلاّ بكونة عزيزاً لا يغلب وبكونه عليماً لا يخفى عليه شيء)).[٣٢]
ومن سياقات التّنزيل أيضا ورود القسم بالآيات الكونية وهي تنتثر في النظم القرآني على نحو نظامي وإعجازي اذ تتميّز بالسرّية والخفائيّة ولكن تواجد النكتة العلمّية الكونيّة في النصّ المفتتح بهذه الحروف لهو دليل بارز على تأكيد القرآن بأهميّة الآيات الكونية في الاستدلال البرهاني على الثوابت العقائدية في الاسلام بحسبان كونها ظواهر مرئية لجميع الناس مادّياً وحسّياً .
أمّا مجيء التّصوير البياني في هذه النصوص فلكونه يمثّل الرتبة الأوّليّة لإظهار المقدرة الإعجازّية ، اذ تقوم عندها هذه الحروف بتقديم الصّورة البيانية أوّلاً ثم الصور الإعجازية تباعاً مترادفة واحدةً تلو الأخرى ، وقد تأتّت هيمنتها من آليّة البيان التي تتخدها بين مداخل السور ومعابر الآيات ، والله أعلم .

المطلب الثاني

وحدة الإعجاز :

تتمثل هذه الوحدة بلحاظ الوحدة الكونية المطابقة للوحدة التّدوينّية ((وقد خلق الله هذا الكون بالحقّ لا يتلبس بخلقه الباطل : { قال تعالى} ((..مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ..))[٣٣]..{وقال تعالى}((.. رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ..))[٣٤]. [٣٥])) .

فالإعجاز هو الرابط التوحيدي لجميع المصاحف المتعددة والدليل هو خلود المصحف على ما هو عليه مع فرض احتمالية عدم تسلسل بعض أجزائه كما أنزل أول مرة.
وبما أنّ التنزيل موحّد إعجازيّاً فإنّه يوجد مصحفان مختلفي الترتيب وكلاهما معجز كما أنّ وحدة الاعجاز تتأتى من خلال خصائص الوحدة التي تضمن للإعجاز الحفظ والأتّساق وعدم إتيان الباطل إليه . كما يمكن أنْ نلحظ هذه الوحدة الاعجازيّة منسجمة على نحو غير مخلّ في تنوّع المكّي والمدني في الأسلوب القرآني وعندها تصلح أن تكون مثار وحدة نصّية متكاملة ، والحال نفسه في المقتضى العقائدي ووحدة إعجازها إذ أنهّا تكمن في ترابط النسيج الكلّي بالجزئي أي بالأتّساق المعنوي المترابط كالذي بين المحكم والمتشابه أو الناسخ والمنسوخ أو العآم والخاصّ وغيرها .
ومن هنا فإنّ وحدة الإعجاز هي وحدها القادرة على لمّ شتات الموضوع القرآني مهما اختلف في مصّبٍ واحد ....
ويمكن أن تستنتج خصائص هذه الوحدة بالتّطبيقات الآتية :

-١- النّمط الُصْحَفي :
إنّ تثبيت نمطيّة الترتيب المصحفي بحسب السبق واللحق ـ تبقى القضية التنزيلية المحفوظة في المتحف التّاريخي للقرآن وهي تفيد في إسناد الدليل الاستقرائي لحقيقة الوحدة الاعجازية ... فهناك نمطان جمع بهما القرآن ، الاول ترتيب للقرآن على وفق معيار نزول آياته ملحوظاً فيه ظروفه ومناسباته ومقتضياته من خلال كتابة مراحل التنزيل بمنهجية معيّنة تكمن في التّقييد التّاريخي والتّوثيق الزّماني المرتبط مع نزول الآيات الكريمة .
فالحقب التّاريخية المتلاحقة لنزول الوحي القرآني منجماً دفعة بعد أخرى ، أو على شكل دفعات هي أطوار التنزيل أومراحلة ، وهي قضية حسّية ثابتة تاريخياً ومتحقّقة في السّيرة النبوية وتاريخ الدين الاسلامي ، اذ تكشف نمطيّة التّرتيب هذه عن منهجية دراسة التنّزيل ..
قال ابن الخطيب في هذا النمط : ((.. فمنهم من رتّبه على ترتيب نزوله ، كعلي رضي الله عنه فقد كان أوّل مصحفه سورة أقرأ ثم المدثر ثم نون ، ثم المزمل ثم تبّت ثم التّكوير وهكذا إلى آخر المكّي فالمدني..))[٣٦] .
وقد ذكرنا هذا النمط بدءاً لمّا كانت نمطيّة التنزيل غير قادحة بإعجازية المصحف هذا أوّلاً ، وثانياً : إنّ الامام علي هو من كتّاب الوحي وعلى تماس مباشر بمايتفّوه به الرسول الأعظم وهذا ما لم يتسنّ للخليفة عثمان بن عفان وإن كان جامعاً للمصاحف فيما بعد وثالثاً : كان سبب الانتشار والإجماع على مصحف الخليفة عثمان لتولّيه حرق بقية المصاحف بمباركة الإمام علي وهي حادثة تاريخية ثابتة أزالت من الوجود مصاحف جميع الصحابة وأبقت المصحف العثماني المجمع عليه
وقال الكلبي: ((فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قعد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيته فجمعه على ترتيب نزوله ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير ...))[٣٧] فمصحف الامام علي الذي جمعه على ما جاء في الأثر بحسب أسباب النزول لم تَشْبه شائبة تاريخيّة أو اختلافيّة فبقي مصوناً بالحفظ العام للقرآن .
ويمثّل هذا الاسلوب تثبيتاً تاريخياً للتنزيل إذ يستمد دلائل إعجازه من حيوّية النّص القرآني كأنّ نزوله كما يقول المرحوم الدّكتور صبحي الصالح ((بحري الآن تحت سمعنا وبَصرنا))[٣٨] .
ولكن ((ممّا يدلّ على أنّه لا يحب اثباته في المصاحف { كما يقول القرطبي} على تاريخ نزوله ما صحّ وثبت أنّ الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع في السورة المكية ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلاّ وأنا عنده – تعني بالمدينة – قد قُدمّتا في المصحف على ما نُزل قبلهما من القرآن بمكّة ولو ألفّوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السّور)).[٣٩]
إذن تأليفه بحسب السّور وهو ما عليه المصحف العثماني – ليس متمحّضاً لتداخل السور بين المكّية والمدنيّة وهذا هو النّمط الثاني الذي رتّب فيه القرآن ، ولم يكن ترتيباً سورّياً بحتاً ..
وهذا النمط هو ما تجلّى في مصحف الخليفة عثمان في ترتيبه المشهور إذ رتّبه بحسب التّرتيب الكّمي بدءاً بتقديم السّور الطّول ثم التي تليها في القصر على نسق قريب مما ثَبُت عليه المصحف العثماني ، وعندها أخذ الحجم مقياساً للتّرتيب فوضع الفاتحة بعنوانيتها ثمَّ جاء بالسّبع الطوال وأوّلها البقرة وآخرها التوبة ، ووضع السّور التي تليها المئين وهي السّور التي تزيد على مئة أو تقاربها ثم جاء بالمثاني وهي السّور التي بعدها وقد سُمّيت بهذا الاسم لأنهّا ثَنتّها ، فهي لها ثوانٍ ، والمئون لها أوائل ، وتلتها قصار السور التي تسمّى بالمفصّل لكثرة الفصول التي بينها بالبسملة ...[٤٠]
وظهر هذا النّمط بتحّول الحفظ من الصدور الى القراطيس بعد عمليّة تدوين القرآن على يد الخليفة عثمان الذي سمّي بالحافظ عثمان أي أنّه القائم بالتبّع بعملية الحفظ التي يشير إليها القرآن لأنّ الحافظ هو الله سبحانه وبالتبّع رسوله الامين .. وعندها جرّدت مصاحف عثمان ((من جميع هذه الزيادات التي لم تتوافر قرآنيتها وإنّما كانت من

قبيل التّفسير أو تفصيل المجمل أو إثبات المحذوف وأهملت منها جميع الروايات الآحادية وأضحت سورها وآياتها على النحو الذي نجده في مصاحفنا اليوم.))[٤١]
وعلى ما تقدّم فأيّ مقياس آخر نأخذه لتنظيم نصّ القُرآن لا يقدح في قرآنيّة القُرآن وفي ذلك دلالة كبرى على إعجازه المستمكن الشديد بتنوع الترتيب بحيث لو رتب على نمطية التنزيل وافق وان رتب على نمطية المصحف وافق، وعندها يبقى محفوظاً بكلّ تشكيل ممكن أن يتشكّل فيه .. إلاّ الحذف أو سقوط بعض السور أو الآيات أو الزيادة فيها، فهذه غير ممكنة لأنّها تنافي الوحدة الاعجازية في ضمان الحفظ على الصورة التي نزل فيها ، وإنْ تقدّم بعضها أو تأخّر .
يقول الاستاذ عبد القادر احمد عطا: ((والقرآن وحده هو الكتاب الذي يعطيك من كل وجهة من وجهتي ترتيبه منهجا عالميا جامعا مانعا محكما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو في ترتيبه النزولي كما قلنا.منهج لتأسيس دعوة وأسلوب اقناع بعقيدة وطريقة تبشير وانذار ودحض كامل لمنطق الإلحاد المريض وهو في ترتيبه المصحفي اسلوب حياة وبناء حضارة ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون هداية للمؤمنين.))[٤٢]
إذن الظاهر ة الاعجازيّة موجودة بلحاظ وحدة الاعجاز مهما تغايرت أنماط مصاحف التّنزيل ،إذْ المهمّ في هذه الوحدة أنّها موجود ة في كلا المصحفين ((مصحف الامام علي ومصحف الخليفة عثمان)) وهما يمثّلان كتاباً واحداً ولا انتقاص، أو تعارض ، بدليل أنّ القرآن من أي جزء قريء سواء من بدايته أو أواسطه أو نهايته هو يبقى تحت عنوان ((القرآن الكريم)) فحتّى الاستهلال في تلاوتهِ لا يؤثّر بماهيّة قرآنيتهِ وهذا ما يؤكّد على الهيته وتمام معجزته .

-٢- المقتضى العقائدي :

من تمامية نعمة الله على عباده أن يجمل ويفصل لهم آياته بالآفاق والأنفس تحقيقاً لمصالحهم ومراعاة لمقتضياتهم وتيسيراً لأحكامهم في الدنيا والآخرة .
أي أنّ الإحاطة الالهيّة تكون هنا بلحاظين : كلّي وجزئي لكي يستتم العقل غذاءه الروحي بكلا الوجهين ؛ إحكاماً وتشابهاً ، ناسخاً ومنسوخاً ، وذلك من خلال قوة ترابط النسيج القرآني وإحكامه في وحدته المعجزة التي تستطيع لمّ شتات الموضوع القرآني مهما اختلف في مغزى واحد ، وذلك بالأتّساق المعنوي ، فمثلاً : ما كان مجملاً ومتكوّراً على معانيه فهو المتشابه، وما كان مفصّلاً وتجزيئياً مبيناً للأحكام فهو المحكم ، وكذلك الحال في النّاسخ والمنسوخ إذ لا نجد تناقضا عندهما كما زعم المستشرقون بل ذلك من وحدة الإعجاز إذ ((يمكننا أن نعدّه ضرباً من ضروب التدرج في نزول الوحي ، فمعرفتنا بما صحّ من وجوهه تيسّر علينا تعيين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية وتظهرنا على جانب من حكمة الله في تربية الخلق وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي : وهو الله ربّ العالمين لأنه يمحو ما يشاء ويثبت ويرفع حكماً ويبدل آخر من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل ولا شأن حتى ولاخاتم النبيين نفسه)).[٤٣]
فالعقيدة تستوعب كل نواحي الفكر الانساني وتطوراته المستقبلية إذ تترصد بكمائنها كلّ ما يمكن أن يتحدى إعجاز ثوابتها الايمانية ومقولاتها الأساسية ... وبذلك استطاعت في ضوء هذه الاصول القرآنية أن تلم بأطراف القضايا الفكرية من جميع جهاتها زماناً ومكاناً ، بما لا يبقي عليها مدخلية في النقض أو الاختلاف ..
وَلمّا كان التنزيل موروثاً عقائدياً مهماً لا يمكن التفريط به بأي شكل من الأشكال فهو بوابة عقائدية يمكن الاستفادة منها في ترسيخ معظم العقائد الثابتة في الكتاب والسنّة ... كالتمجيد بذكر الكتاب وهيمنته على الكتب السابقة والقصّ والاعتبار بقصص الأنبياء والأوصياء والصالحين والهيمنة الالهية المطلقة وبسط الأمور العقائدية مقرونة بالوعد والوعيد ومشاهد القيامة وانقسام الناس الى مؤمنين وكفار وهذه مقرونة أيضاً بالترغيب والترهيب أو عرض التوحيد بأنماط مختلفة كلّها تحمل مبدأ التوحيد الأزلي فارداً وواحداً من حيث المعنى والمضمون .
فمثلاً يتجلى الأثر الإعجازي والتشريعي المستمر مع الظاهرة الإعجازية للتنزيل فهو في "صحف مكرمة" "وفي لوح محفوظ" "ولا ريب فيه" ولزوم الاستماع له ولزوم الانصات عند قراءته ولزوم الايمان به ولزوم التدّبر فيه ولزوم ترتيله ولزوم الطهارة لمسه" وغيرها . فهذه السّمات ردائف للحفظ المضمون في القرآن وثوابت حافظة من أجل تعضيده على أنه نصّ الهي لأياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وهنا تبقى هذه الفعاليات الانسانية مستمرة بسبب عدم نضوب المحتوى القرآني على نحو مستمر ، والمجهود البشري لا يقدح بحافظية النصّ القرآني بل يقوّيها عند المؤمنين ، لأن المعجز لا ينثلم منه شيء بدليل الحفظ الالهي هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأنّه كتاب عزيز فقد ثبت تاريخّياً وعقائدّياً عدم المكنة من محاججته ومعارضته ، ويفيد هذا في ترسيخ الايمان بحقانيّة الكتاب المنزل أنّه معجزة خالدة وبدليل قابليته على كسب كثير من الناس في الدخول للدين الاسلامي ..

قال الرازي في تفسير قوله تعالى :(( ) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١))) [٤٤]
((أمّا كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالباً فالأمر كذلك لأنّه بقوّة حجته غلب على كل ما سواه ، وأمّا كونه عزيزاً بمعنى عديم النّظير فالأمر كذلك لأنّ الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته))[٤٥] .
هذا أولاً وثانياً : فقد هدى هذا الكتاب أمةً كاملة فحوّلها من الهمجّية الى المدنّية إذ بسط منافعه الأخلاقية والتهّذيبية للتأثير في نفوسهم ، ولو كان من مصدر شيطاني لما أثمرَ رجالاً صالحين ونافعين للمجتمع .، وقبال هذا المنار العقائدي والتّشريعي رحمة للعالمين فإنّه لم يزل مطعناً لأصحاب النفوس الشريرة والمستكبرة ... على ماله من منعة منيعة في حصونه وكمائنه ...

-٣- التّنوّع الأُسلوبي :
يعتمد التضارب في مكّية السورة أو مدنيّتها على التّرجيح في غالبية الأقوال لعلمنا علم اليقين أن رواية المصحف عالية التوثيق وبعده يأتي الاحتمال بأخذ المرجّحات الأقوى التي لا تناقض المصحف في كلّياته ..
إن تقارب التشابه لا يتحكم في كون السورة مكّية أو مدنيّة ، وهذا التّقسيم بحسب المدينة النازل فيها القرآن ثابت ولا يمكن التّمحّل بالتّشابه لتغيير هذا النظام التنزيلي ؛ أي لا يوجد تحكّم بالتشابه وذلك بإعطاء الحكم على أنّ السورة مكية أو مدنية ، لأنها مشابهة لأحد النمطين ، فهذا من الاستنباط غير المقبول لاعتماده على مرجحات لا تتناسب والقضية القرآنية ، كما نلحظ ورود ذلك عند أحد المفسّرين المحدثين لقوله : ((وهناك أربع سور ذكر المصحف الذي اعتمدناه أنّها مدنيّة وهي الزلزلة والانسان والرحمن والرّعد في حين أنّ مضمونها وأسلوبها مشابهان كل المشابهة للسور المكّية دون السور المدنيّة وأنّ هناك روايات تذكر أنّها مكّية . ولذلك فسرناها في عداد السور المكية))[٤٦] .
إذن لا احتكام -من هذا الباب- في التّقسيم بين المكّي والمدني لأنّ التنّزيل عمليّة توقيفيّة تؤخذ عقيدة ثابتة ذلك أنّه مصحف وصل إلينا بهيئته الخطّية والكتابيّة كما هو ولا يجوز المغايرة في نصوصه أو إحالاته وإن اختلف الأسلوب أو تشابه فليس للاجتهاد العقلي مدار وحركة في هذه القضية .. ولكن يجوز له ذلك بالمجال التّرتيبي – بحسب الامكان ـ وجعلها مكية بلحاظ وحدة الاعجاز إذا لم تخل بوحدة القرآن في سياقه الموحّد.
وإذا كان هناك من يقول إنّ أُسلوب القرآن يساعد بنطاق غير ضيّق على التّمييز بين السور المكّية والسور المدنية بل الآيات المكّية والآيات المدنيّة ، فهذا لا يسوّغ الاحتكام الاسلوبي في عملية التّمييز بين المكّي والمدني كما ذهب الى أبعد من ذلك بعض[٤٧] المستشرقين أيضاً لأنّ هذه العملية غير ميسورة للجميع ، وعندها يؤول بنا الإشكال في هذا الاحتكام الى الاختلاف في التّحليل بما يدلّل على أنه ليس الاسلوب الناجع لاسيما وأنّنا قد احتطنا من اختلاف لنقع في اختلاف آخر ونحن في ثنايا الاسلوب القرآني المعجز .. فليس من الهيّن تفكيك أنماطه الأسلوبية لأنّ أسلوبه من عناصر إعجازه وهو يشبه المنطق القرآني من كونه عنصراً إعجازياً لا يمكن محاكاته أو مماثلته.
وعلى هذا فالنكهة الاسلوبية في القرآن بعيدة عن متناول العقول والأفكار البشرية -على وجه الدقة- لأنّه كتاب ليس فيه تعمل بشري من قريب أو بعيد.
وما ورد من شبهات استشراقية [٤٨] بصدد المكّي والمدني وأنّ القرآن قد خضع لظروف بشرية : اجتماعية وشخصّية أثّرت في أُسلوبه وعرضه ومادته وموضوعاته هي شبهات باطلة يدحضها التّعاضد والأُنسجام في الآيات القرآنية جميعاً ، هذا أوّلاً ، وثانياً : إنّ تحليل الأوضاع النفسية أو البشرية المعنية تدحض دعاوى المستشرقين جملة وتفصيلاً ، وعندها نقول : إنّ الآيات المكّية لم تخضع لظروف بشرية أو اجتماعية بحساب أنّ الذي حصل هو عكس ما زعمه المستشرقون ، فالذي حصل أنّ معظم النصوص المكية نصوص عنيفة في مواجهة المشركين وهي تبيّن العزّة الالهية وأصول التوحيد والعقيدة الحقة ، في حين أنّ نفسية المؤمنين وأوضاعهم كانت ضعيفة وتحت سياط التعذيب.
أمّا السّور المدنية فكانت هادئة وذات إمضاء تشريعي تقنيني على الرغم من كثرة الحروب التي عاناها مسلمو المدينة في هذه الحقبة.
من هنا نجد أنّه لو صحّت مزاعم المستشرقين لكانت السور المكّية في خانة الخضوع والآستسلام ، والسّور المدنية في حال الاضطراب والقلق من جهة الحرب ... وهذان لم يحصلا ... بل على العكس فالتنّزيل أُحكمت آياته من لدن حكيم خبير وهو متوافق شرطاً مع الإعجاز والحركة الإعجازّية للقرآن ، كما أشار الى ذلك المرحوم الدكتور الصالح بقوله:
((وهكذا كان تنوع الموضوعات هو الباعث الأهم على تنوع الاسلوب القرآني ، فما هما بالأُسلوبين المتعارضين اللذين لا تربط بينهما صلة وإنّما هو اسلوب واحد يشتد أو يلين ويفصل أو يجمل تبعاً لحال المخاطبين ، وهذا سّر من أسرار الإعجاز التي يمتاز بها القرآن الكريم))[٤٩].

اذن فالتنوع هنا : هو التّعدّد في حدود الوحدة القرآنية ، وعندها لا يفتّ ذلك في عضد الاعجاز القرآني.

-٤- الحفظ ألاقتداري :

يكمن سر الإعجاز القرآني على طول الخط من كونه محفوظاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مصداقاً لقوله تعالى :

((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)))[٥٠].

وهنا اشارتان واضحتان في قوله ((من بين يديه)) ((ولا من خلفه)) إلى امكانية التعدد في التّرتيب سواء أكانت المدخلية الى ذلك الترتيب من الخلف أو من بين اليدين ، إذ تشير الآية بواقع الدلالة النّصية الى إمكان حصول الإعجاز بحالين من الترتيب كما يفهم مما يقابلهما النص القرآني ، أو أنه محفوظ معجز من جهة الخلف ومن جهة ما بين اليدين أو أنه محفوظ معجز من حيث الكم الكلي المجموعي اذ لم تسقط منه نقطة ولا حرف ومن حيث الحفظ الموقعي السياقي، فان (أو) لا تحول الى (و) ولا العكس مع ضآلتها وعندها فكيفما يترتّب فهو معجز بالحفظ الأُقتداري ، .. وكيفما فسّرت وجوه هذه الآية بتدبر دلّت على الإعجاز الالهي في تنزيل القرآن وحفظه .

فمن ذلك اشارة الخازن الى بعض هذه الوجوه التي تدلّ على حفظ القرآن من التّحريف فقال : ((قيل: الباطل هو الشيطان فلا يستطيع أن يغيّره وقيل : إنّه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ، فعلى هذا يكون معنى الباطل الزيادة والنقصان وقيل : لا يأتيه التّكذيب من الكتب التي قبله ولا يجيء بعده كتاب فيبطله وقيل معناه : إنّ الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل اليه..))[٥١].

وحلّل البقاعي معنى الاية على نحو أعمق فقال :

((ولمّا كان من معاني العزّة أنّه ممتنع بمتانة رصفه وجزاله نظمه وجلالة معانيه من أن يلحقه تغييّر ما بيّن ذلك بقوله : ((لا يأتيه الباطل)) أي البيّن البطلان إتيان غلبة فيصير او شيء منه باطلاً بيناً ، ولمّا كان المراد تعميم النفي لا نفي العموم أدخل الجار فقال : ((من بين يديه)) أي من جهة الظاهر مثل أمر أخبر به عما كان قبله ((ولا من خلفه)) من جهة العلم الباطن مثل علم ما لم يشتهر من الكائن والآتي سواء كان حكماً أو خبراً لأنه في غاية الحقية والصدق والحاصل أنّه لا يأتيه من جهة من الجهات لأنّ ما قدام أوضح ما يكون وما خلف أخفى ما يكون فما بين ذلك من باب الأولى . فالعبارة كناية عن ذلك ، لأنّ صفة الله لاوراء لها ولا أمام على الحقيقة ومثل ذلك ليس وراء الله مرمى ولا دون الله منتهى ونحوه مما تفهم العرب ومن علم لسانها المراد به دون لبس ثم علّل ذلك بقوله ((تنزيل)) أي بحسب التدريج لأجل المصالح..))[٥٢] . وبقيت الحافظية اقتدارية ثابتة على مرّ الدهور والعصور بلحاظ كونها العملية الانحفاظية الطبيعية الملازمة للوحي والاعجاز والتنّزيل بنصّ الآية الكريمة.

- وقد نسي الاستاذ "دَرْوَزة" الإرادة الالهية في حفظ هذا الكتاب- وهي إرادة مهيمنة على الكون كله بله الأرض ومن عليها ، وهي إرادة تكوينّية يخضع لها كل شيء باللطف والهيمنة الالهيتين ، تلك الارادة التي حفظت القرآن في صدور الصحابة اذ لم يكن مطبوعاً أو مصوّراً ، وذلك الحفظ كافٍ لردع الأكاذيب ومواجهة الأباطيل ، فلمّا استشهد كثير من حفاظه في الحرب دعت الحاجة الى استنهاض الهمم في جمعه وتدوينه خصوصاً- ..اذ يقول: ((وإنهّا لمعجزة كبرى تستحق التنوية في هذا المقام ويكفي لتبيين خطورتها أن نذكر ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب منذ صدر الاسلام الأوّل وما كان من اجتراء الناس في ذلك العهد وبعده على رسول الله والكذب عليه ...وما كان من وضع الروايات والأحاديث لصرف آيات من القرآن إلى غير وجهها بسبيل ذلك ... وأن نذكر أنّ هذا في حين لم يكن القرآن مطبوعاً أو مصوّراً..))[٥٣]

وكشف الزمحشري في هذا الصدد عن هذه الإرادة القاهرة الحافظة استدلالاً فقال في معنى الاية : "وأنّه لكتاب عزيز " أي منيع محمي بحماية الله تعالى :" لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. مثل كأنّ الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد اليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلّق به ، فإنْ قلت : أما طعن فيه الطاعنون وتأوّله المبطلون ؟ قلت : بلى ، ولكن الله قد تقدّم في حمايته " عن تعلق الباطل به" : بأنْ قيض قوماً عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم فلم يخلُ طعن طاعن إلاّ ممحوقاً ولا قول مبطل إلاّ مضمحلاً ونحوه قوله تعالى: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)))[٥٤]))[٥٥].

وهنا مسألة مهمة ، هي الحفظ بقوة والرّدع بقوة ، لأنّ التمكّن في الانزال أينما كان في الالواح المصونة اعجاز بحدّ ذاته وعندها فالحفظ إعجاز أيضاً ؛ لذا فالقرآن الحقيقي الأقرب الى معنى الحفظ الحقيقي هو قلب الانسان المؤمن الحافظ لَهُ وخصوصاً اطفال المسلمين الحفّاظ لتمام القرآن وهم حفظوه في اللّوح القلبي الذي يؤتمن أكثر من اللّوح القرطاسي أو التّدويني .

إذن فالحفظ الالهي تابع لثبوت الاعجاز وهو يتجلى ايضا بتهيئة ظروف غيبيّة لمنع المبطلين ودحض الأراجيف مهما كان نوعها وقوة تمكيرها وهؤلاء المدافعين عن القرآن حملة الذكر والرّاسخون في العلم وهم ((من كلّ خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وأنتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.))[٥٦] هذا من وجهة ومن وجهة أخرى فللقرآن قوّة غيبية عارضت مسيلمة وجعلته قوّة مضمحلة إزاء اعجازه الالهي.. ومن هذه وتلك نخلص الى القول: إن دعوات التحريف المزعومة ما هي الا جهل بأسرار الإعجاز التنزيلي وحفظه المجيد.

الخاتمة ونتائج البحث :

توصل الباحث الى النتائج الآتية :

١- مفاد النظرية الاعجازية للتنزيل : أنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف من حيث طبيعة نزوله ، أو نمط ترتيبه ، أو تنوعات أسلوبه ، وهذا ما يحقّق إثبات إعجازّية التنزيل بلحاظ حركته التي هي عين الاعجاز.

٢- إنَّ التنزيل القرآني ثابت تاريخياً ، امّا احتفاف النظريّة بالأدلّة المحتملة فهو ممتد لوجود الجري والأنطباق في الاعجاز القرآني بما يمدّد عملية التنزيل على طول الزمان والمكان .

٣- يشير القرآن إلى الظاهرة الاعجازية بكثرة مشيداً بقدسيتها وموقعها العظيم في الدنيا والآخرة وإنهّا محفوظة في أمّ الكتاب بكتب مرادفة متعددة لمهمّة الحفظ الالهي مثل الكتاب المكنون واللّوح المحفوظ وغيرهما؛ ومن هنا فإن الاعجاز ليس كامناً بالكلمات بل باللوح الغيبي الذي ترتسم عليه هذه الكلمات -وهو مصدر حياة الاعجاز- وعندها فالحفظ الإلهي يكون لعين اللوح لا للإصطفاف الكلماتي المتعارف.

٤- تكمن حقيقة الإعجاز التنّزيلي في كونها متكوّرة حول وحدة نورّية سارية في النصّ القرآني حافظة له وجامعة في الوقت نفسه إذ يكتسب هذا الإعجاز قوّته من الإعجاز النصّي نفسه ، وعندها فلا إعجاز بالأستغناء عن إعجاز النصّ.

٥- ينطوي الإعجاز التنّزيلي على الدفاع التنَّزيهي وهو لبّ الحفظ الالهي الذي اشار اليه قوله تعالى ((وانا له لحافظون)) فالحفظ متلازم مع الإعجاز تلازماً شديداً لايمكن انفكاكه بأيّ شكل من الأشكال ، وهذا ماحيّر العقول وسلب طاقة المعارضين قبل أن يتمكنوا من مصاولة القرآن الكريم ومعارضته ..

٦- تعد ليلة القدر هي منبع الاعجاز القرآني لأنها منشأ النزول النوري وعندها يجب أن تستغل عبادياً بختم القرآن العظيم لصعود النور من الأرض الى السماء فيها بما يؤدي الى مواءمة اشعاعية نورية تؤدي حق الاعجاز على نحو كامل وبما يطابق الحصول على أعظم قدر من الأجر والثواب في تلك الليلة المشهودة..

٧- إنّ اختلاف ترتيب السّور بين مصحفي الخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما لم يؤثر في درجة الاعجاز والدّليل أنّه القرآن كيفما كان : باقياً على إعجازه بلحاظ الحفظ الالهي وهو حفظ القرآن من التّشتت والضياع وإنْ تفاوتت بدءاً أجزاء منه أو تعددّت مصاحف جمعهِ وأسلوب قراءاته ، فحين سلم بها لم يقدح ذلك بحفظ المصحف وبقاء إعجازه كلاماً الهياً محققاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٨- استمرار الأثر الإعجازي والتّشريعي للقرآن – بلا أدنى شك – لأنّه كتاب هداية وأخلاق بدليل قابليته على كسب كثير من الناس في الدّخول للدّين الاسلامي وأنّه باقٍ كما أُنزل في "صحف مكرمة" "ولوح محفوظ" "ولا ريب فيه"، ولزوم الاستماع له ، لزوم التدبّر فيه ، وترتيله ، والطّهارة لمّسهِ"وغيرها. وهذه كلها سارية لا متناهيّة فيه مع كل ما مر به من عصور الطغيان والفجور لأنّ المعجز لا ينثلم منه شيء بدليل الحفظ الالهي، فضلاً عن أنّ اللّاتناهي من إعجازيته المستمرة في حفظه من التّحريف وأنّه مكتوب في زبر الاولين ، صحف ابراهيم وموسى وهّن ممن خرقّن ولم يحفظنَ.

٩- يلحظ التطابق بين الكتابين التّدويني والتّكويني في هذا الباب ، فالسّور والآيات تتغيّر مواقعها والمصحف ثابت ، برابط (الإعجاز) كما أنّ النّجوم والمجرّات متحركة والكون ثابت برابط (الوحدة) ، وكلاهما من أدلّة النظام الالهي المعجز .

((وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربّ العالمين))

((الهوامش والإحالات))

(١) فكرة إعجاز القرآن ((نشأتها وتطورها)) (بحث) ص ٤٦١ .
(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٢-١٩٥
(٣) سورة غافر الآيات ١-٣ .
(٤) التّفسير الكبير ٢٦/٢٧ .
(٥) المدرسة القرآنيّة ص ٢٢٠
(٦) سورة الإسراء الآية ٨٨ .
(٧) إعجاز القرآن للباقلاني ، مقّدمة المحقق ص ٧٧ وينظر المتن ص ٢١-٢٦ .
(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني : المجلد الاول /١١ .
(٩) تاريخ القرآن ص ٥٧ .
(١٠) كتاب التفسير ((تفسير العيّاشي " ١١/١ ، أمّا معنى ما ورد عن الامام من وجهة فنية فيعني : ((أنّ النصّ لا يعطيك من ذاته كاملاً (إلاّ إذا تضافرت جوانبه المختلفة في وحدة).)) : البحث الدّلالي في تفسير الميزان ص ١٣٨؛ وكأنه يقول: التجزئة خاطئة فعليك بالتأمل به.
(١١) المدرسة القرآنيّة ص ٢٢١ .
(١٢) سورة هود الآية ١ .
(١٣) المدرسة القرآنيّة ص ٢٢٢ .
(١٤) سورة البقرة الآية ١٨٥ .
(١٥) سورة الدخان الآيات ١-٣ .
(١٦) سورة القدر الآيات ١-٣ .
(١٧) يُنظر : كتاب المصاحف ص ٢٩ ، ورسم المصحف ص ١١٧ – ١١٩ .
(١٨) تفسير الكشاف ٢٧٠/٣-٢٧١ .
(١٩) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٣ .
(٢٠) تاريخ اليعقوبي المجلّد الأوّل ص ٣٥٣ .
(٢١) مباحث في علوم القرآن ص ٧١ .
(٢٢) التفسير الحديث (تريب السّور حسب النّزول) ١١٣/١-١١٤ .
(٢٣) رسم المصحف ((دراسة لغوية تاريخية)) ص ١٢١ ، وينظر : ((البحث الدلالي في تفسير الميزان)) ـ دراسة في تحليل النص ـ ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ؛ فكل الإشارات القرآنية تدل على أنه وحي وتوقيف من لدن حكيم خبير، تفصح عنها أنساقه الدلالية والعلمية والمعرفية وهي كيفيات هندسية من أسلوبه المعجز المتفرد وهي تدل أيضا على بصمات صاحب الرسالة واعتنائه الكبير بأداء أمانة ما يوحى إليه على أكمل وجه، ينظر في هذه الإشارات مقدمة محقق كتاب: (تناسق الدرر في تناسب السور) ، ص٨-٢٠، ٢٣-٢٨.
(٢٤) الإتقان في علوم القرآن – ٢١٤/١ .
(٢٥) النّظم الفني في القرآن ص ٨ .
(٢٦) يُنظر : الفقه على المذاهب الخمسة ص ١٠٨ -١١٠ ، ويُلحظ وجوب الوجه المتواتر أو عدمه في : مسالك الإفهام الى تنقيح شرائع الاسلام ٢١١/١ .
(٢٧) المرسل الرّسول الرّسالة ص ٨٦ .
(٢٨) سورة الشّعراء الآيات ١٩٢-١٩٥ .
(٢٩) سورة الواقعة الآيات ٧٥-٨١ .
(٣٠) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢ .
(٣١) سورة غافر الآيات ١-٣ .
(٣٢) التفسير الكبير ٢٦/٢٧ .
(٣٣) سورة يونس الآية ٥ .

(٣٤) سورة آل عمران الآية ١٩١ .
(٣٥) في ظلال القرآن ٧/١ .
(٣٦) الفرقان ، ص ٤٧ .
(٣٧) التّسهيل لعلوم التنّزيل ، المقدّمة ٦/١-٧ . ويّنظر : كتاب المصاحف ص ١٠ .
(٣٨) مباحث في علوم القرآن ص ٣٤٢ .
(٣٩) الجامع لأحكام القرآن ٦١/١ .
(٤٠) يُنظر : النَّظْم الفني في القرآن ص ١٦ ، ورسم المصحف ص ١٢٢ .
(٤١) مباحث في علوم القرآن ص ٨٥ .
(٤٢) تناسق الدرر في تناسب السور، مقدمة المحقق ص١٣-١٤، وانظر (مفتتح الترتيب النزولي بسورة المدثر، ومفتتح الترتيب المصحفي بأول سورة البقرة وتفصيلاتهما..) مقدمة المحقق ص١٤-٢٠.
(٤٣) مباحث في علوم القرآن ص ٢٥٩.
(٤٤) سورة فصّلت الآية ٤١ .
(٤٥) التّفسير الكبير ١٣١/٢٧ .
(٤٦) التّفسير الحديث : من مقدمة (الطبعة الأولى) ص ١٧ .
(٤٧) يُنظر : التّفسير الحديث ١٢٦/١ نقد الخطاب الآستشراقي ٣٢١/١ .
(٤٨) يُنظر : المدرسة القرآنيّة ص ٢٥٥-٢٥٧ ، ونقد الخطاب الآستشراقي ٣٤٨/١-٣٥٨ .
(٤٩) مباحث في علوم القرآن ص ٢٣٣ .
(٥٠) سورة فصّلت الآيتان ٤١-٤٢ .
(٥١) لباب التّأويل في معاني التنّزيل ٣٦٧/٥ .
(٥٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور ٥٧٩/٦ .
(٥٣) التفسير الحديث ١١٨/١ .
(٥٤) سورة الحجر الآية ٩ .
(٥٥) تفسير الكشّاف ١٩٦/٤ .
(٥٦) كتاب أسرار البلاغة ص ٣٦٣ .

((كشّاف المصادر والمراجع))

- خير ما نبتديء به القران الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن : للحافظ جلال الدين السيوطي ، تحقيق :" محمد أبو الفضل إبراهيم " انتشارات الشريف الرضي – مطبعة أمير – قم ١٣٧٣ – ١٤١٥ هـ .
- إعجاز القرآن : لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق : السيد أحمد صقر _ دار المعارف – مصر.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعي ، (ط ٩) دار الكاتب العربية – بيروت – لبنان ١٣٩٣ هـ -١٩٧٣ م .
- البحث الدلالي في تفسير الميزان " دراسة في تحليل النص " – الدكتور مشكور كاظم العوادي : (ط ١) مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر بيروت ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣ م.
- تاريخ القرآن : دكتور عبد الصبور شاهين - ط١، دار القلم، ١٩٦٦.
- تاريخ اليعقوبي : لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي ، تحقيق عبد الأمير المهنا ، (ط١) مؤسسة الاعلمي للمطبوعات – بيروت ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ .
- التسهيل لعلوم التنزيل : ؛ للشيخ الإمام أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ؛ ضبطه وصححه وخرّج آياته : محمد سالم هاشم – (ط ١) ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ .
- التفسير الحديث " ترتيب السور حسب النزول " : تأليف : محمد عزة دروزة ، (ط ٢) دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازي (ط٣) مركز النشر الإسلامي ، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامية – قم – ١٤١١ هـ . ق .
- تفسير الكشاف : " عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " للإمام أبي القاسم جار الله محمود الزمخشري ، وبحواشيد أربعة كتب ، رتبة وضبطه وصحّحه محمد عبد السلام شاهين ، (ط٣) – دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٠ م .
- تناسق الدرر في تناسب السور: للحافظ جلال السيوطي -دراسة وتحقيق ، عبد القادر أحمد عطا - (ط١)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان- ١٤٠٦هـ-١٩٨٦.
- الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ط٢) ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة – ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥م .
- رسم المصحف ((دراسة لغوية تاريخية)) تأليف غانم قدوري الحمد – (ط١) مؤسسة المطبوعات العربية -بيروت- ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : تأليف العلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ، ضبطه وصحّحه علي عبد الباري عطية ، (ط٢) دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .
- الفرقان : لابن الخطيب ، دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان . د . ت .
- الفقه على المذاهب الخمسة : " الجعفري ، الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي " . لمحمد جواد مغنية ، (ط٣) مؤسسة الصادق للطباعة والنشر ، طهران إيران / ١٤١٦ هـ . ق .
- فكرة إعجاز القرآن " نشأتها وتطورها " : (بحث) : للدكتور عمر ملاّ حويش – ضمن بحوث المؤتمر الأول للإعجاز القرآني المعقود ببغداد رمضان ١٤١٠ هـ ، مطبعة الأمة – بغداد ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م .
- في ظلال القرآن : سيد قطب ، (ط٥) – القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .
- كتاب أسرار البلاغة : لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق ((هـ ، يتر)) (ط٢) بالاوفسيت – مكتبة المثنى – بغداد – ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- كتاب التفسير " تفسير العياشي " لأبي النضر محمد بن مسعود العّياشي وقف على تصحيحه والتعليق عليه السيد هاشم الرسولي المحلاتي – المطبعة العلمية – قم – د . ت .
- كتاب المصاحف : للحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود الأشعث السجستاني حقّقه وقدّم له الدكتور آرثر جفري ، (ط١) دار التكوين للنشر والتوزيع دمشق ٢٠٠٤ م .

- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) : للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن ، ومعه تفسير البغوي – ضبطه وصحّحه عبد السلام محمد علي شاهين – (ط١) دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .
- مباحث في علوم القرآن : الدكتور صبحي الصالح (ط٢٦) دار العلم للملايين بيروت – لبنان ٢٠٠٥ م .
- المدرسة القرآنية : للشهيد محمد باقر الصدر ، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر ، (ط ٣) ، مطبعة شريعت – قم – ١٤٢٦ هـ . ق .
- المرسل الرسول الرسالة : للشهيد محمد باقر الصدر ، دار التعارف للمطبوعات – بيروت ، لبنان ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام : لزين الدين بن علي العاملي (الشهيد الثاني) تحقيق ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية (ط٣) مطبعة عترت / قم المقدسة – إيران ١٤٢٥ هـ . ق .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي ، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي – (ط٢) دار الكتب العلمية – بيروت ، لبنان ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .
- النظم الفني في القرآن : عبد المتعال الصعيدي ، المطبعة النموذجية – مصر . د . ت .
- نقد الخطاب الاستشراقي " الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية " : الدكتور ساسي سالم الحاج ، (ط١) – دار المدار الإسلامي بيروت – لبنان ٢٠٠٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

((خلاصة البحث))

بدأت جهود المسلمين الأوائل بإشراف الرسول الأكرم على جمع القرآن وترتيبه وكتابته اذ المقصود بجمعه: حفظه واستظهاره في النفوس وكان هذا أولا ومن ثمّ كتابته بعد جمعه من الصحابة والصحف المكتوبة فيه من عهد الرسول الى عهد الخليفة عثمان بن عفان، وقد توافرت القرائن القريبة والروايات المعضدة التي تؤكد ان القرآن كان يدون حالة نزوله وان هذه المدونات كانت تحفظ وتتلى بدقة واحكام، تسجيلاً توثيقاً كما كانت القراءة بالاحرف السبعة تيسيرا للهجات المختلفة للقبائل وحفظا على وحدتها وتعضيدها للائتلاف المصحفي.

والقول بالنظرية لعدم توافر الادلة الثبوتية الكافية، ومن هنا نتوخى ان نتوصل من هذه القبسات اللامحة الى مداخل اسنى من لطائف الاعجاز العظيم، اذ تثبت هذه النظرية وتشير على نحو واضح الى قاهرية الوحدة الاعجازية وهيمنتها على احكام دعائم الدين وضبطه داخل نظمه المعجز المهيأ له من بارئه لا سيما وان معجزة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم عين رسالته ورسالته عين معجزته وهما معا القرآن العظيم.

ومن ذلك فان مفاد النظرية الاعجازية للتنزيل تعني: ان امر الاعجاز والاحتجاج به لا يختلف من حيث طبيعة نزوله او نمط ترتيبه او تنوعات اسلوبه، وهذا ما يحقق اثبات اعجازية التنزيل بلحاظ حركته التي هي عين الاعجاز.

(ربنا امنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)

والحمد لله رب العالمين

Abstract

The first Moslems' efforts had started by the supervision of the Great Prophet to collect, arrange, and to write or record the holy Quran .For what is meant by "collect" is to learn by heart and the written scripts since the Prophet's era to Othman Ibn Affan's era .The close evidences and the certified tales emphasized that the Quran was written or recorded as it was sent dawn, and that these records or scripts were kept very carefully .In addition, there were the seven letters reading that

facilitated the different dialects of the tribes, kept its unity and assisted the Quranic coalition.

We say it is a theory due to the non sufficient evidences .So we tried, by these lights ,to reach the shiner introductions of the great prodigy witticism .This theory indicates the ability of the prodigy unity to support the religion props and control it within its composition that had been prepared to it by His Almighty God, especially that our prophet's miracle is his mission ,and his mission is his miracle and both of them are the Great Quran.

So the prodigy theory means that the prodigy and the protest with it are not different on the level of its sending down nature, its arrangement pattern or its style difference which affirm the Quran prodigy by notice its movement which is its prodigy.

"Praise be to God firstly and lastly."

The Quranic Prodigy Theory

Assist. Prof. Mashkoor Al-Awwady (Ph.D)

University of Kufa